مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء ٤ — نيسان سنة ١٩٢٣م شعبان ورمضان سنة ١٣٤١ المجلد ٣

الآثار القديمة الشرقية (١)

(٥) آثار مدينة قَدَس وحصونها القديمة

توطئة

سبقت لي الاشارة الى موقع هذه المدينة (اي قَدَس) او (قادش) بمعنى المقدسة وما كان لها من الشأن في حروب فراعنة مصر على صفحات هذه المجلة (١ : ٣١٦) . وها أنا ذا اليوم ابحث عن عناية الأثريين في اظهار عاديّاتها وما وُجد فيها من النفائس التاريخية . وأن بحيرة (قطّينة) اليوم هي (بحيرة قَدس) القديمة قرب مدينة حمص . مقدماً كلمة مختصرة في تاريخها فأقول :

ما هي مدينة قدس وبحيرتها

بنى القدماء سدًّا للعاصي في محلة قَدس فاجتمعت فيه مياهه وعرفت (ببحيرة قدس) واتخذت لسقي الارض التي حولها الى حمص . ولا يخفى ما اشتهر به القدماء في بناء السدود وتوزيع المياه وهندسة الأقنية . وهناك قامت (مدينة قَدس) التي اشتهرت في التاريخ بمواقعها العظيمة بين الفراعنة والوثنانيين واخوتهم الآراميين ثم بينهم وبين الحثيين . فكان فيها هيكل لعبادة آلهتهم . ثم صارت معقلا شرقيا حصينًا وعاصمة لتلك الدول القديمة التي كان ملوكها من اشد الشرقيين بسالة فدافعوا فيها عن الغزاة الذين زحفوا اليها من الجنوب مثل الفراعنة المصريين وغيرهم

(١) راجع المجلد الثاني من هذه المجلة في الصفحات الـ ١٣١ و١٦١ و١٩٨ و٣١٢

وسميت ايضاً في التوراة (حدشي او حدسي او حدثي) واشتهرت فيها عبادة (عشتروت) اي (القمر) عندهم فسميت المدينة مقدسة . ولعلها كانت للاله (هدد) او (حدد) وهو آرامي واشوري كانوا يضيفون اليه اسماءهم تبركاً مثل هدد عازار وكانت مملكة دمشق الآرامية تسمى (أدد) ويكنى عن ملوكها بابن هدد . وشاعت فيها عبادة الشمس فكانت مركزاً دينياً وسياسياً معاً منذ القديم لوقوعها في قلب البلاد وقرب المياه وعلى ممرّ الغزاة والفاتحين

والسدّ الذي هناك هو متين البناء جميل الهندسة والوضع كوّن (بحيرة) طولها نحو اربعة آلاف وثمانمائة متر وعرضها نحو الف وستمائة متر يصبُّ فيها نهر العاصي فيملأها ثم يخرج منها الى غربي حمص فيمرّ بحماة الى سهول انطاكية حتى يصل الى مصبّه عند السويدية بعد ان يقطع نحو ٢٦٧ كيلومتراً . ولا يزال حول هذه البحيرة الى عهدنا قرى ومزارع وفيها جزر صغيرة ايضاً وهي على بعد عشرة كيلومترات عن حمص ويرجح ان الروتانيين (١) اخوة الآراميين الذين كانوا قبلهم قد اتخذوا هذه الحلة موقعاً حربياً لهم كما كانت موقعاً دينياً وزراعياً ايضاً وذلك لحفظ مملكتهم الممتدة من لبنان الشرقي الى جميع بلاد ما بين النهرين واعتصاماً بحصونها من غزوات تحوتمس الثالث فرعون مصر وغيره كما صرّحت بذلك الآثار المصرية في الكرنك فذكرت انه استولى على ١١٩ مدينة في بلاد الروتنو منها مدينة قادش على ضفة العاصي وكركميش على ضفة الفرات وهما عاصمتاهم

ولما استظهر الحثيون على الروتانيين اتخذوا قدس عاصمة لهم وجلوهم عن حمص المدينة الحصينة لحولها تجاريةوذلك في القرن السابع عشر قبل الميلاد . فكانت حصون قدس ومعاقلها من اعظم الحصون التي دافعت عن بلاد الحثيين في الجنوب كما دافعت حصون (كركميش) اي ايرابوليس او جرابلس في الشمال . وذلك في غزوات ساتي الاول بن رعمسيس الاول من ملوك الدولة التاسعة عشرة المصرية وابنه

(١) راجع مقالتي المطولة عن الروتانيين واللودانيين في مجلة المقتطف (منذ سنتين) وفي هذه المجلة (١ : ٣١٦ و ٣٧١)

رعمسيس الثاني فكان النصر يتراوح بين الفريقين

وكان فراعنة مصر قد اختطوا لهم منهجين في زحفاتهم على اسية فالمنهج الاول من طريق بلاد كنعان (فلسطين) الى بقعة آون اي (سورية الجوفة) المعروفة اليوم باسم بلاد بعلبك والبقاع الى وادي العاصي حيث (حصون قدس) ومنها يعبرون الفرات الى ما بين النهرين

والمنهج الثاني من جهات طرابلس الشام الى بلاد حصن الاكراد حيث قلعة الحصن المنيعة فالى قدس في مضيق وادي خالد من جبل اكروم الذي هو فرع من جبل عكار

وليس من غرضي الآن تفصيل تلك الغزوات العظيمة وما جرى فيها من المواقع الدامية ووصف الشعراء لها ولا سيما بنتاؤور شاعر الفراعنة ولكن جلّ قصدي الكلام عن آثارها بعد الالماع الى شؤونها بهذه العجالة

ولقد تنوسي اسم قدس اليوم فليس له ذكر الاّ في طاحون الى الجنوب الغربي منها في عين تنور تسمى (طاحون قدس) . والبحيرة تسمى (قطّينة) وفيها وحولها اطلال تلك المعاقل الحربية القديمة فلذلك اختلف العلماء في موقع (حصون قدس) المشهورة وحفر بعضهم لاكتشاف انقاضها فلم يحلوا منها بطائل واليك تفصيل تلك الحفريات التي جرت في محلين هما في (تل التين) الكائن ضمن البحيرة وفي (تل النبي مند) من ضواحيها

(١) تل التين في بحيرة قدس

هو رابية في نصف البحيرة يمثل جزيرة تعلو قليلاً عن الماء بيضية الشكل طولها نحو ثلاثمائة متر في عرض مائتين لا سكان فيها اليوم ولكن تزرع فيها بعض الحبوب ويسار اليها بقوارب كان يظن انها موقع قدس . ففي سنة ١٨٩٣ قدم سورية المسيو غوتيه Goutiet الأثري الفرنسي من كبار الاغنياء والاشراف لحفر آثار قدس برخصة من الحكومة العثمانية فدرس شؤون البحيرة والجزيرة التي فيها فرأى هناك رابيتين احداهما تسمى (تل التين) في الجزيرة والثانية (تلّ النبي مند) خارج البحيرة . فتمثل له ان تل التين هو موقع حصن قدس الذي يجب حفره واستخراج آثاره لدرس حالة الحثيين ومحاربتهم للفراعنة معتمداً على وصف بنتاؤور والمؤرخين وما كتب

عن ذلك في المجلات الأثرية وتآليف العرب وما في الخططات (الخارطات) . فسافر من فوره الى فرنسه لتمحيصها لتلك الآراء وعاد بعد قليل في تلك السنة يصحبه العالم الطبيعي المسيو بيوفار Biofart من موظفي متحف ليون التاريخي مبعوثاً لنقل الرسوم والصور . فعاد هذا على الأثر الى بلاده لانحراف صحته بوبالة الهواء في قدس . وبقي مع غوتيه محمود افندي الذي بعثته الحكومة العثمانية لمراقبة الحفريات

فشرع يحفر في تل التين معرضاً عن تل النبي مند لاسباب ارتآها ولموانع لم يستطع دفعها فاستقدم قاربين جديدين من طرابلس الشام لحوض المياه فمهّد الأكمة فظهرت له فيها آثار صليبية واسلامية ونقود وانواط (مداليات) رومانيـة وبيزنطية على بعضها صورة الامبراطور (كلود) . وظهرت له انقاض حجرية تشبه حجارة تل النبي مند واروقة ومواد صلبة واشياء أخر كثيرة غيرها نقلت الى تل النبي مند لبناء حصن المدينة اليونانية المسماة اطلالهـا اليوم (بلاذقية لبنان) . وكانت الطبقات تدل على ابنية رومانية وتحتها اطلال يونانية . ووجد خزفاً اشبه بما في متحف بردو في تونس الغرب . وكشف ادوات واسرجة ودمى كلها مصنوعة من تراب تلك الارض وتمثال حمامة في فمها غصن زيتون ذات نقوش بديعة وبعض قطع قلبية الشكل عليها حروف يونانية نائتة . وقبوراً فيها جثث متراكمة وقرب رؤوسها آنية خزفية صغيرة واسلحة وهياكل حيوانات تدل على دفن قتلى المعارك بسرعة عظيمة في تلك الأمكنة . واسلحة من الصفر (النحاس الاصفر) ونصال وخناجر ودبابيس ومجان وقطع كالهلال محددة الاطراف ومثقوبة الوسط . وفي الطبقات السفلى وجد ادوات ظرانية من الصوّان او الحجر الاسود المحروق وظهر حول الجزيرة على مسافة مائة متر عن الشاطئ سور منيع الجدران غائص نحو متر في المياه

وهكذا اسفرت هذه الحفريات عن معرفة العصور التي تقلبت على تلك الاطلال الدارسة والحصون المنيعة فاعلاها صليبي وعربي ويليه البيزنطي فالروماني ثم اليوناني فالفينيقي فالظراني فضلاً عما تخلل ذلك من عصور الدول الاخرى التي امتزجت انقاضها فتعسر تمييزها . وقد استنتج المسيو غوتيه من هذه الآثار بعد ان انفق على حفرها نحو سبعة آلاف ليرة من ماله الخاص : ان قدس عاصمة الحثيين هي في تل النبي

مند لا في تل التين هذا وطوي امر هذه الآثار ولم تنشر الا اخبارها التي لخصنا منها هذه المقالة ٠٠ الذي اراه انه ربما كان اسم (التين) محرف عن الحثيين بلسان العامة اذا لم يكن باسم الشجر المعروف لكثرته فيه بعد هدمه ومنه اسم (قطينة) (١) ايضاً الذي يطلق على البحيرة الآن لما كان للحثيين فيه من المواقع والاعتصام والشهرة البعيدة في مقارعة فراعنة مصر وغيرهم من الغزاة ٠ وقد تكون كلمة (التين) محرفة عن الروتيين اسلاف الآراميين واخوتهم كما مرّت الاشارة الى ذلك في المجلد الاول من هذه المجلة وكما مرّ في اول المقالة والله اعلم بما يحدث لمثل هذه الاسماء من التحويل والقلب والابدال والتحريف والتصحيف فيعسر ردّها الى اصلها وتتعارض الآراء بشأنها والحقيقة بنت البحث

(٢) تل النبي مند خارج بحيرة قدس

(تل النبي مند) قرية تبعد عن شاطئ البحيرة نحو ساعة ونصف على نهر العاصي فوق تل عالٍ تشغل مساحتها نحو ثلاثة ارباعه وجميع سكانها مسلمون وهي لاذقية لبنان او مدينة قدس القديمة التي ثبت للأثريين بعد احتفار تل التين كما تقدم انها هي قدس بعينها ٠ وممن رجح هذا الرأي الأثري الاب لامنس اليسوعي في كتابه تسريح الابصار (٢ : ٣١)

وقد نشر برستد J. H. Breasted كتاباً في معركة قدس بالانكليزية طبع في شيكاغو (الولايات المتحدة) سنة ١٩٠٣ في ٤٩ صفحة ٠ فجاء احسن وصف لفنون الحرب في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وأُخذ عليه توهمهُ في مواقع بعض المدن القديمة وشططه في تعيينها

وكان روبنصون Robinson قد زارها سنة ١٨٥٦ ووصف البحيرة وجزيرتها والقرى التي حولها وقال: ان مدينة قدس كانت الى جانب البحيرة لا في وسطها وكانت محصنة منيعة الاسوار والمعاقل توقف العدو عن زحفه من الشمال في سهول حمص وحماة ولهذا كانت معترك الحروب القديمة ولا سيما بين المصريين والحثيين

(١) راجع هذه المجلة ١ : ٣٧٣

فبقي الأثريون ينتهزون الفرص للحفر في تلك الآثار ليحققوا تاريخ المتحار بين و يستخرجوا ما يضاف الى عاديات متاحفهم من تلك الاطلال المندرسة

وفي آذار سنة ١٩٢٠ جاء الأثري موريس بيزار M. Pezard الفرنسي وبدأ الحفر في نيسان وحزيران وتموز وكان عنده اربع مائة فاعل يشتغلون باجتهاد فظهر له ما يحقق آماله بوجود مدينة قدس في تل النبي مند واستراح من العمل في هذه السنة

وفي ربيع سنة ١٩٢١ وصلت البعثة الفرنسية الى بيروت للبحث عن هذه الآثار واتمام ما بدأت به في العام الماضي بادارة بيزار نفسه وكان عدد الفعلة الذين يشتغلون بالحفر نحو اربع مائة كالماضي ومهندس الاشغال شارل لي بروسّه Charl Le Broussee فحفروا في اشهر نيسان وايار و بعض حزيران سنة ١٩٢٢ وفي ١٩ حزيران من هذه السنة سافرت البعثة الى فرنسة ونشرت اعمالها في مجلة سورية (Syria) الفرنسية بقلم بيزار نفسه بمقالة مطوّلة ومصوّرة ثم جمعت بكتاب على حدة في ١١٣ صفحة بقطع نصف كبير ومنها نلخص اعمالها هذه المرة :

استعان المسيو بيزار بآراء من تقدمه ومنهم الأثريان الابوان لامنس ورونزفال اليسوعيان اللذان بحثا بتدقيق عن موقع (قدس) وكتبا فيها . فدرس تلك الاماكن درساً كافياً مخالفاً من تقدمه في بعض الآراء وكانت نتائج ابحاثه وتحقيقاته كما يأتي :

ظهرت له بحفرياته في (تل النبي مند) اطلال سور خارجي تمتد الى نحو ثلثي طول التل الحالي وظهر محل البوابتين فيه . وفي شرقيه وجد اطلال حصون ومعاقل منيعة على علو نحو اربعة امتار وربما كان هذا السور من عهد الماديين . وأهم ما كان هناك الحضارة الهيلانية اي اليونانية والرومانية . ووجد آثار أقنية او خنادق كانت تحيط بالمدينة وحصونها على طريقة القدماء فتحولها الى جزيرة في زمن الحصار . وارتأى انه لا يمكن ان تكون مدينة قدس هي مدينة حمص نفسها بل كل منهما مدينة مستقلة بنفسها . وان طبقات الاطلال تدل على الآثار الكنعانية واقدم منها الحثية التي وصل اليها على عمق ١٩ متراً وهي متقنة الصنع تدل على حضارة الحثيين الراقية

ولتسهيل البحث عن آثار المدينة شرع في حفر خندق يبلغ سبعين متراً طولا واربعة عشر متراً عرضاً . وذلك في ساحة التل حيث لا توجد بيوت . فهناك ظهرت

آثار الحثيين . والى جنوبي التل على بعد عشر دقائق آثار الرومان وامتدت جنوباً على ضفة العاصي حيث وجد اطلال ابنية و بقايا اعمدة . وظهرت آثار حريق في اسفل التل تدل على تأثير الحصارات والحروب الطويلة

وظهرت آلات البناء في الحفارة الرومانية البزنطية و بعض قبريات وفي منطقة تل النبي مند الجنوبية وجد قبرية باسم يوليوس بن مكيموس Joulios fils de Mokimos واسم مكيموس يظهر انه سامي و يقرب من (مقيم) وذلك كثير في الحاق الاسماء السامية بالاعلام اليونانية ونحوها . ووجدت كسر من نوع الخزف القبرصي حمراء اللون . و بعض صناعات شرقية محضة مثل رأس ثعبان من العظم وصورة طائر من نوع الجبس وحلقة من الذهب ربما كانت من زمن السلوقيين وتمثال حيوان سوري و بعض النقود الاسلامية . واوان وأدوات من العظم والعاج والزجاج الملوّن البديع النقوش من الفن المصري الفينيقي ولعلّ الوطنيين نقلدوا الصناعات المصرية من تماثيل وأوان وظهرت قطع من الشبه (البرونز) مثل اسلحة وأسنة رماح وإبر ودبابيس وحلقات واساور ومفاتيح ومسرج وكاس وجرن واشباهها فضلاً عن الأدوات الحديدية الكثيرة المهمة

وأهم تلك الآثار نصب في صخر من الحجر الناري الرمادي الضارب الى السواد وعليه صورة ساقي الاول ابن رعمسيس الاول فرعون مصر من الاسرة التاسعة عشرة الذي حارب الحثيين بمواقع مشهورة هو وابنه رعمسيس الثاني كما فصلت ذلك الآثار المصرية وعرض هذا النصب ٧٠ سنتيمتراً بعلو ٤٥ وسمك ٤٠ . وهو يمثل خمسة اشخاص واقفين على شكل نصف دائرة وعن يمينهم الملك سيتي يتناول صور النصر . وتقابله رسوم اربعة آلهة عرف منها (مون رع) رب السماء (ومنتو ارب طيبة بيده سلاح وفوقهما اسماهما والقابهما . واما الاله الثالث فهو (خنسو) . بيده صولجان واسمه قد كسر من النصب . والآلهة الرابعة (قديشو) واقفة وراء عمون وهي سامية سميت بها المدينة وهو من آثار القرن الرابع عشر قبل الميلاد و بظن انه اقيم لانتصار فرعون في سورية فنقل الى متحف بيروت الآن

بقي القول في كلة (مند) فليس عند المسلمين نبيٌّ بهذا الاسم كما اخبرني كثير من

الواقفين على اسرار الديانة . فلا يبعد ان تكون كلمة (مند) او (مندو) تحريف الاله (منتو) او (منتو) المصري الذي يدل في عرفهم على المادة او الهيولى وهو رب طيبة الذي وجدت صورته واسمه على الصفيحة الحجرية المكتشفة حديثاً مما يدل على انتشار عبادة المصريين في تلك الاصقاع ايام غزواتهم اياها . وكذلك وجد اسم (امون رع) وهو يدل على الشمس و (خمس او خنسو) وهو يدل على القمر . وهذه العبادات عرفت في المشرق بامتزاج الامم وبقوة الفاتحين فتوهم انه من انبياء المشرق فسمي التل باسمه واطلق عليه (النبي) . ويسمى قبر النبي مند ايضاً (قبر النبي بنيامين) ولعله هو المراد بالنبي ولكن الفة الناس للاسم القديم ومحافظتهم عليه رجحت بقاءهُ مع اضافة كلمة النبي اليه بدون تروٍّ

وتل النبي مند يعلو ٣٢ متراً في اسمى ذروة منه ومعدل عمقه بالنسبة الى الحفريات ١٩ متراً

واما (قبر النبي مند) ففيه مسجد من نحو ستة قرون وضريح عليه قبة ولعله من آثار الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي اعتنى بالمزارات والمساجد وآثارهُ باقية في كثير منها وهي من ابنية القرن الثالث عشر للميلاد

اما قلاع قدس فلم نجد لها ذكراً في الحروب الصليبية بل كانت المعاسكر تخيم بجوارها مراراً كما ذكر ذلك المؤرخون مما يدل على نقضها قبل ذلك وآخر من خيم فيها ابرهيم باشا المصري في غزوته الاخيرة لسورية وذكرت قدس و بحيرتها في تواريخ العرب كثيراً

الختام

هذا ملخص ما كان من شؤون مدينة قدس و بحيرتها وحروبها وآثارها دونتهُ متابعة لابحاثي في آثار شرقنا العزيز وما فيه من الدفائن الفاخرة والعاديات الثمينة في هذه المجلة العلمية وسأردفهُ بما ظهر و يظهر من الآثار الاخرى في الشام وفلسطين والعراق ومصر وغيرها في الايام الاخيرة ولو فسح لي التوسع في ذلك لملأت اجزاءً بوصفها ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه فاجتزئ بالقليل عن الكثير وفيه غنى عن الإطالة والله الهادي الى سواء السبيل

عيسى اسكندر المعلوف